تشكلات الهوية في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد

لواسيني الأعرج-مقاربة ثقافية –

Identity formations in the Elamir's novel

-cultural approach-

طالبة دكتوراه/سماعل وهيبة

قسم اللغة والأدب العربي جامعة العربي التبسي تبسة-الجزائر

smaalwahiba.31@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/05/18 تاريخ القبول: 2018/00/00

ملخص:

نروم من ورقتنا البحثية الكشف عن تشكلات الهوية في الخطاب السردي باعتبارها وحدات جوهرية لتشكيل فضاء الرواية ؛لا سيما البعد الذهني والفكري الذي تلعبه تلك الهويات قصد تشكيل متخيل منتظم، يساهم في إثراء التلقي الأدبي والمعرفي المستشف من عالم الرواية ؛وهذه الورقة تستمد مادتها من رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد للروائي الجزائري "واسيني الأعرج".

الكلمات المفتاحية : الرواية،السرد،الهوية.

Abstruct:

From this paper, we explore the identity formations in narratives as basic units of the novel space, especially the intellectual and intellectual dimension that these identities play in order to form a regular visualizer, which contributes to enriching the literary and cognitive reception of the novelist-Kitab el-Amir massalek aboib elhadid- of the Algerian novelist "Wassini Laaredj".

Key words: - novel-narration- identity

1-الهوية الدينية وحوار الديانات :

تعرض رواية الأمير قضية الهوية الدينية كموضوع أساس من موضوعات المحكي، وتقدم لها عبر آليات سردية يشكلها تمثيل الشخصيات لأدوارها الدينية والعقدية التي تظهر في النص عبر ملفوظات صريحة تنم على الاعتقاد والرؤية والممارسة ؛وقد ذهب الروائي إلى تحيين فواصل زمنية فارقة تدفع القارئ إلى ضرورة التأمل العميق في الأبعاد العقدية الدينية التي تشكل تمايز الهويات الدينية في النص الروائي.

يقدم الروائي في مستهل عمله ،شخصية "جون موبي" والقس "مونسينيور ديبوش" كرجلي دين مسيحيين لازم وجودهما حضور الآخر—المستعمر-في الجزائر أثناء انطلاق المقاومة الشعبية بقيادة الأمير "عبد القادر بن محي الدين الجزائري" سنة 1832،ليكون بذلك الأمير الوجه الآخر لحضور الهوية الدينية في النص الروائي باعتبار اختلاف المعتقد بين الإسلام والمسيحية.

وقد جعل الروائي من الرجلين المسيحيين لسانا ناطقا لحياة "الأمير عبد القادر الجزائري" عبر تفعيل تقنية **تعدد الرواة بالمنظور الباختيني** ، دافعا بهما إلى **سرد** حكاية البطل الرمز من منظور مغاير لما هو سائد ومعروف ،ومجمل ذلك السرد هو الحكاية العامة **لمسار البرنامج السردي**[1] مع ما يتخللها من محكيات فرعية تعرض مواطن تأكيد الهوية الدينية ،عبر عرض مسارات تشكلها المفارقة للآخر سواء ارتبط ذلك بالنظرة إلى الإسلام أو المسيحية على حد سواء،وتعد تلك المحكيات أساس الحوار الذي يخلق تمايزا واضحا للتشكيلات الخطابية التي تعبر صراحة عن المرجع الهوياتي الديني .

تنطلق الرواية عبر قصة مسار حياة القس "مونسينيور ديبوش" التي سردها صوت الراوي "جون موبي" المرافق الشخصي له؛وقد حمل الروائي شخصية "جون موبي" مسؤولية عرض حياة سيده من منظوره الخاص بحسب العلاقة التي جمعتهما؛يقول في ذلك "موبي":«**كان أبي وأخي كان كل شيء في حياتي خدمته أكثر من عشرين سنة .جئت معه إلى هذه الأرض عندما عين أسقفا على الجزائر وصاحبته في كل منافيه إلى أن مات**»[2].

هكذا ينطلق "جون موبي" في التعبير عن وظيفته كرجل دين متطلع إلى مراتب عليا في سلم البابوية المسيحية إذ هو في الأصل تلميذ للقس ومبشر بالمسيحية في إطار الحملة الاستعمارية الفرنسية لطمس هوية الجزائري المسلم؛وتستدعي الشخصية حضورها في مسرح الأحداث عبر سرد محطات حياتية مشتركة بينه وسيده القس ،أبرزها محطة اللقاء بالأمير عبد القادر الجزائري،التي شكلت نقطة« **التماثل الذاتي واستمرارية continuity في طرق الأنا التكاملية وفي نمط الفردية الشخصية وأن هذا النمط يتوافق مع التماثل والاستمرارية للمعنى الشخصي كما يدركه الآخرون الذين يمثلون أهمية في الوسط الاجتماعي لهذا الفرد** »[3] إن

إدراك حالة التماثل بين شخصية "حون موبي" وشخصية سيده ؛تحدد منذ البدء هيمنة العنصر الديني وحضوره في سرد أحداث تجربتهما في الجزائر لاسيما وجهة نظرهما الواحدة تجاه "الأمير عبد القادر" الذي شكلت نقطة التعارف عليه انعطافة كبيرة ،إزاء فتح مجال الحوار الديني بين الإسلام والمسيحية ؛والذي أدت إليه وقائع شتى جمعت بين الطرفين مثل؛ واقعة تبادل الأسرى والموقوفين ومساعدة الفقراء والبؤساء وهو الفضاء الذي أتاح للآخر المسيحي، عرض مشروعه صراحة لاحتواء الآخر يقول: «**في البداية تمنيته مسيحيا نزهو به كأخ ونلقنه تعاليمنا ليذهب بها إلى ذويه ويشيعها لكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل الذي يشبهنا في كل شيء لا يمكن إلا أن يكون إلا هو ؛رجل محب لكل شيء يقرب الإنسان من المحبة والله** »[4]

يعبر الوجود المسيحي عن تواجده في النص الروائي كمسار سردي هام هو مسار تكوين الذوات الفاعلة في الخطاب الروائي وهي عينها الهويات الدينية التي تتآلف عبر أشكال الحوار المتعدد والمتواصل على المستوى الفرداني /الفردي/الطبيعي أو على المستوى الثقافي الفكري، فينفتح السرد على موضوعات التجاذب والتقارب بين الأنا والآخر –المسيحي والمسلم- وتعد حادثة إطلاق الأسرى –التي أشرنا إليها سابقا المدخل الفعلي لفتح باب الحوار وإثراء أفق اللقاء بين الديانتين لا سيما بعد رد الأمير في مراسلة للقس يطلب فيها من القس مراعاة اتفاقيات تبادل الأسرى حيث ؛يقول:

«**اعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين والمحبوسين وليس سجينا واحدا كائنا من يكون وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم،أحب لأخيك ما تحب لنفسك**»[5]. وكان لهذا الرد الأثر البالغ في تغيير وجهة نظر القس تجاه دوره الاجتماعي والديني وهو ما أدى به إلى ضرورة تعميق الحوار مع الأمير من قضايا السياسة إلى قضايا الإيمان العميق وهذا ما شكل حافزا إضافيا لتشكل التجاذب والتقارب على مستوى الشرائع والأحكام ؛وقد دل على ذلك في النص الروائي لجوء الأمير للقس «**مونسينيور ديبوش-في طلب مساعدته – للحصول على كتب متخصصة في الدين والى كاهن معرب يشرح له تفاصيل المسيحية في صفائها الأول** »[6].وبسب العلاقة الحميمة التي جمعت بين الشخصيتين وشعور كل واحد منهما بالتميز الفردي عن باقي أفراد الجماعة ؛فقد وصل الأمر بالأمير-حسب السارد- إلى إمكانية تغيير معتقده الإسلامي إلى المسيحية إن هو اقتنع بتعاليمها وشرائعها ؛يقول: «**روحك أنت غالية علي ومستعد أن امنح دمي لإنقاذها ،..امنحني من وقتك قليلا لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوك**».[7]

هكذا يطرح موقف الأمير موضوعة الهوية الدينية كمادة قابلة للمراجعة والنقد ،سواء على مستوى الفرد أو المجتمع باعتبارها شكلا دالا على مشروعية الاعتقاد كحق فردي يكفل للذات حرية انتقاء الدين والفكر والفلسفة.

2-الهوية الوطنية الجزائرية /التشكل والمآل

إن البحث في العلاقات التي تقيمها اللغة باعتبارها خطابات مع أحداث الثقافة المختزنة في الذات الجمعية ،يفيد كثيرا في التقدم نحو فهم أكثر موضوعية للمعنى .كما أن رصد تحولات اللغة يسهم في فهم تطورات الوعي وارتحالاته العديدة التي تشكل عبره واقعا هوياتيا يعيد إنتاج خطاب ثقافي يؤسس لإعادة تداوله دوما داخل الخطابات عبر استخدامات جديدة .ومن هذه الزاوية ترسم اللغة العامية وكذا المعيارية في مستوى الفعل الثقافي ،صورة الوجود العثماني بالجزائر وهي صورة لانتقال المعنى من حالة قارة في التاريخ /حدث قائم بالفعل/إلى موقف جدلي يدعو القارئ إلى الارتداد إلى لحظات فارقة في التاريخ ترتبط بالأنا الجزائري وبرسم هويته ؛أمثلة هذا الإحلال كامنة في المتن الروائي عبر خطابات متعددة وأبرزها صوت القوال – وهو يراقص قرده-:«**اشطح يا ولد المخازنية جدودك الأتراك باعونا بفلس وطيز رومية ،اشطح يا ولد التالفة وقل في هذا الدوار الخالي ،راح إلي بنا وعلا ويلك يالي توثق في الدونية ،قل ليهم لو كانت الدنيا تدوم كانت دامت للي سبقوكم**»[8].

إن الصوت المتلفظ/اللغة العامية. في هذا الخطاب تدفع القارئ إلى الجدل فيما يخص وجود العثمانيين باعتبارهم ممثلي الخلافة الإسلامية ؛وهذا التمثيل يساعد في تحجيم البعد الديني لفكرة القومية أو الأمة الإسلامية التي يعيش في كنفها الجماعة المعبر عنها في النص الروائي ،ورغم هامشية الصوت/الشخصية في المتن الروائي من حيث الحضور إلا أن اللافت يكمن في توليد قارئ جديد لهذا النص باعتبار النص الأدبي«**ليس ذاتا مستقلة وإنما سلسلة من العلاقات المتداخلة مع النصوص الأخرى ونسقه اللغوي ومعجمه ينسحبان إلى التراث**».

إن تواتر ألفاظ وكلمات ذات بعد تراثي في ملفوظ النص من شاكلة :المخازنية- الأتراك- باعونا بفلس-ولد التالفة-ولد الرومية ..تشكل ظاهرة معقدة في تلقي النص باعتبار أن وضعها في سياق خاص هو الكفيل بفهمها وإعادة إنتاجها.

إن المستقبل لهذه الألفاظ/الكلمات،عليه أن يخوض غمار فك شفرات هذه الرسالة المعقدة عبر تتبع مسار التاريخ ؛والبحث والحفر عن الأسباب التي أدت إلى فك الارتباط العثماني بالجزائر والتخلي عنها وهي تواجه وحدها أشرس هجمة استعمارية في القرن التاسع عشر .إذ يعزو الراوي سبب ذلك إلى حالة الضعف والترهل التي مست مفاصل الرجل المريض والتي عبر عنها في النص

الروائي صوت الأمير-يقول-: «**بالنسبة للباب العالي من الأولى ألا اتكل عليه ولكني فعلت ذلك لوضعه أمام هزاله وخيبته ومرضه الطاعة تأمرني بفعل ذلك ولو كنت أعلم سلفا أن لا أحد يحرر هذه الأرض إلا ذويها** »[9] كما يظهر ذلك الحضور-أي الوجود الإسلامي 9العثماني- بصوت الشعب ممثلا بالقوال؛يقول:«**اشطح يا ولد المخازنية ..إلي دار على راسك شاشية السلطان راح ونساك وباعك بالرخيص /ثم ناولته ابنته الربابة من جديد وبدأ يعزف والقرد يرقص وبنت القوال تغني له بصوت شجي نفس كلمات والدها ..اشطح يا ولد المخازنية باباك ماهو عربي وأمك ماهي رومية .شكون جابك لترابنا يا ولد التركية** »[10].

تعكس هذه الخطابات موقف صوت الشعب من الوجود العثماني قبيل الاحتلال الفرنسي وهو وجود ساهم في نشر حالة من التذمر لدى الأهالي ؛بسبب الفساد المنتشر في البلاد .يقول الراوي، بصوت القوال: «**ولد العصملي جبر لمطامير واجدة وامسح الأرض واكل الأخضر واليابس ،الرجال ما ماتوش علق ونسى ،الحقد كيما النار، لما تنفخ فيها تزيد تشعل ..ولد العصملي يا قردي الزين** »[11].

لم يتوقف التذكير بهذا المكون الفرعي من مكونات تشكيل الهوية - عند صوت القوال فقط- بل شكل بنية أساسية شكلية/سردية في النص ؛جسدته قصة "يوسف التركي"- الجندي العميل- لدى قوات الاستعمار الفرنسي ؛الذي يمثل حضوره استدعاء لذات فاعلة في الخطاب الروائي باعتباره السبب الرئيس في اكتشاف **زمالة الأمير** والوشاية بها عند قادة الاحتلال ؛ويعد اكتشاف الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير ،الحدث الأبرز في النص/التاريخ الذي عجل بسقوط مشروع الدولة القطرية في الجزائر نهاية القرن التاسع عشر.يقول التركي العميل: «**يبدو أنك أعمى يا كابتن وتحتاج إلى طبيب عيون ،ليس المعسكر إلا زمالة الأمير وسأعود بنفسي مرة أخرى لأتأكد مرة أخرى ،لا يمكن أن نترك الفرصة تضيع من يد الدوق دومال** » [12].

بجسامة هذا الحدث الموقف،تصبح صورة "يوسف التركي" صورة للإنسان المحب للجشع والبراغماتية والمعبر عن ذات مهزومة تنم عن قصور الوعي وزيفه إزاء علاقاته مع أقرانه من بني قوميته الذين يمثلون في الحقيقة وحدة الانتماء والمصير المشترك ،يقول الراوي :**من أين جاء يوسف بكل هذا الحقد ؟ما حدث كان يجب أن يحدث.**[13] فكان وجوده سلبيا في التاريخ وفي النص ،يقول الراوي –في وصف سلوك التركي العميل-:«**لم يتوان يوسف الذي يعرف ثقافة الشرق في الهزيمة من إذلال قوات ولي العهد تاركا وراءه قرابة ألف قتيل من الفرسان وألفي جريح لم ينج من رصاصة الرحمة التي يجد لذة في إطلاقها على من بقيت فيه إمكانية الحياة** »[14]

إن تصوير الوجود العثماني بصور مفارقة ومتعددة في الرواية؛تدفع المتلقي إلى اختبار روافد تشكيل الهوية في عالم الرواية /الواقع باعتبار أن هناك آفاقا منفصلة عن الواقع الحاضر تربط الثقافة بالتاريخ وتحيل مرجع الأنا إلى الارتداد في الزمن لاختبار تلك المكونات أو الروافد وإعادة مساءلتها مجددا حول طبيعة العلاقة التاريخية السياسية أهي طبيعة انتداب وخلافة أم صورة ملمعة عن استعمار مقنن ؟إن تحجيم ذلك الوجود واستهجانه في نص الرواية يشكل فعلا معرفيا في جوهره « **فالذاكرة الجماعية لا تصبح واقعا معرفيا إلا عندما تصبح قادرة على إنتاج الأنساق الثقافية التي تتضمن المعرفة ومن ثمة تنشا هيمنة المعنى النسقي وسيطرته على عقل الفرد بعملية تداولية لسانية داخل الخطاب** »[15]

يزداد التوتر في عرض مكونات الهوية الوطنية الجزائرية عبر سرد أحداث العلاقة مع الجار المغرب والتي قدمت في أسوإ حالاتها التاريخية رغم وحدة الشعبين وتآزرهما في العيش والمصير المشترك ،ويشكل هذا النوع من السرد التخييلي للتاريخ أرضية جديدة للقارئ لإعادة مساءلة الواقع إزاء قضايا الجوار والوحدة والقومية عبر استدعاء التاريخ ووضعه على محك الراهن الذي يسجل حالات تشنج في العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب لاسيما قضايا الحدود وأزمة الصحراء الغربية .

يعرض المغرب الأقصى في رواية كتاب الأمير باعتباره الفضاء الطبيعي والحيوي الذي يستأنس له الأمير في بناء دولته ،في حين يقدم النظام الحاكم الملكي كنظام متكبر وعنجهي وهذا ماعبر عنه الروائي في النص بسلوك ولي عهد المغرب "سيدي محمد" الذي **رفض أن يدخل جيش الأمير إلى جانبه حتى لا تقول القبائل إن وراء نصره المؤكد يتخفى رجل أتعب الجيوش الغربية الأكثر نظاما وصرامة ....فقد بعث ولي العهد في إثره بعض قادة القبائل يترجونه أن لا يتدخل فيما لا يعنيه وأنه كفيل بسحق الأعداء** [16].

كما عرض النظام المغربي في صورة خانع متواطئ مع الاستعمار الفرنسي؛ يقول الراوي العليم:**فسلطان المغرب يعتزم الهجوم على الدائرة وتسريح المساجين وتسليمهم لبيجو لمحو آثار الضربة التي تلقاها في طنجة ووادي اسلي ...سلطان المغرب وأولاده باعونا وتناوروا على راسنا والماريشال بيجو سقط في لعبتهم** [17]. وقد تمظهر ذلك الانخراط المغربي السلبي في هجوم قوات السلطان على قبائل" بني عامر" التي كانت تساند الأمير واستجارت بالأخ المغربي الذي لم يتوان في **شن هجوم عليهم وهم يحتمون بربوة وراء موتاهم وظلوا يدافعون عن حريمهم ثم هاجموا بشكل انتحاري واشتبكوا مع الجيش وعندما يئسوا من الانتصار ..قتلوا أبناءهم وبناتهم خوفا من السبي ثم قتلوا أنفسهم ومن بقي حيا منهم باعه رجالات السلطان في أسواق مراكش وفاس بأبخس الأثمان** [18].

وتعد حادثة إعدام البوحميدي –المرافق والصديق الوفي للأمير- من قبل المخزن ،نقطة انعطاف خطيرة لمسار العلاقة بين الأمير والمخزن ؛يقول الأمير:**سجن بمجرد وصوله ثم وصلنا أنه قتل في حبسه ولا أحد يعرف التفاصيل بدقة الأخبار التي نفذت إلينا في بدايات شهر ديسمبر قطعت مع كل الشكوك .قتل البوحميدي مسموما في سجنه.يقال أنهم رأوه يتلوى في مكانه وأمعاؤه تتمزق وظل يتمرغ حتى فارق الحياة ورمي للكلاب الجائعة في أنفاق السجن** [19].

إن السلوك العدواني للمغرب إزاء الأمير عبد القادر لم يقتصر عند هذا الحد بل تعدى إلى محاولات جريئة لاغتيال الأمير وتصفيته جسديا بدأ بإرسال جاسوس عسكري من رجال السلطان حاول قتله ولكن مشيئة الله غيرت الموقف بأن رق قلب المهاجم وامتنع عن فعله؛ وهذا ما عبر عنه صراحة في الرواية بقوله:**يا أمير المؤمنين لقد كلفت بقتلك وها أنا ذا أفشل في رفع سيفي ولا أدري لماذا مع أني كنت وحدي كما ترى ؟..يا أمير المؤمنين إنهم يريدون قتلك وهم مصممون على ذلك** [20].

كما عرضت الرواية آخر مسارات العلاقة بين الجيش الأميري والمخزن ضمن المعركة الأخيرة التي أنهكت الأمير للهروب من المغرب والدخول إلى الجزائر ليقرر الاستسلام لجيش "بيجو" وعدم تجرع كأس المذلة والمهانة التي أعدها له ملك المغرب .يقول الأمير:**أفضل أن أسلم لنفسي لعدو حاربته وانتصرت عليه في الكثير من المعارك وقبلت هزائمه ،على أن أقدم رأسي لمسلم خانني وقت الشدة ...** [21].

هكذا إذا؛ تعرض المحطات السابقة هشاشة مكونات الهوية الوطنية في ظل اتكائها على مقومين أساسيين هما الإسلام – ويمثله الوجود العثماني التركي- وبين العروبة التي مثلها الحضور الملكي للمخزن في الرواية،وهما رافدان خذلا الأنا/الجزائري في مراحل تشكله نهاية القرن التاسع عشر وصراعه المرير تحت نير الاستعمار الفرنسي إلى غاية التشكل الفعلي للهوية الجزائرية تمثلها الدولة المستقلة سنة 1962.

3-الهوية الجماعية :التشظي وتعدد الكيانات:

تحفل رواية الأمير مسالك أبواب الحديد بحضور جماعات متميزة ومتباينة من حيث الموقع والعلاقة مع إمارة "الأمير عبد القادر" ؛وشكل تميزها ذلك إضفاء **لهويات متعددة** [22] غلب عليها الطابع العرقي والقبلي والإثني ،وأقلها حضورا الجماعات ذات الطابع الديني .وقد شكلت هذه الكيانات في تفاعلها بيئة أو فضاء لحركة السرد ؛وقد عمل الراوي على تبسيط وجود تلك الجماعات كي تكون أكثر سهولة للفهم في حالة حضورها نصيا ومدى علاقتها -باعتبارها حوافز سردية- بمسار الأحداث وقد يحدث أن تتمظهر بعض الهويات لملاءمة طبيعتها مع الأحداث

اليومية التاريخية أو في بعض المحطات الخاصة ؛حيث استأنس الروائي بالتاريخ فاستدعى القبيلة كمصلح دال على جماعة لها ما يميزها عن الآخرين ؛مصطلح سابق للدولة المدنية الحديثة، وهو مؤشر من الراوي على وجود مكونات أولية لتشكيل هوية واحدة للشعب الذي يعيش في أرض الجزائر وقد عرض لنا الراوي ذلك الوجود ضمن مسارين :

أما الأول وهو يختص بالقبائل المبايعة للأمير ؛التي عمل جاهدا على توحيدها في إطار دولته الفتية .

أما الثاني ؛ويتعلق بالقبائل والجماعات التي كانت تعارض الأمير في الموقع والفكر.

غير أن سؤال الهوية كلما اتجه إلى دائرة التوسع في صراع هذه الجماعات ينبئ عن قصور حقيقي لوعي الجماعات هذه في ظل جو مشحون بالتخلف والعصبية ؛لذا نجد في النص الروائي برنامجا سرديا فرعيا يبين موقف الأمير من هذه الهويات التي تتنازع فيما بينها لأسباب غير حضارية كالتحرش أو السرقة أو القتل ..يقول الأمير:**خلاص كل شيء لازم يتغير هذاك العهد إلي كنا فيه نأخذ مال الناس بغير حق راح .القبائل صارت من لحمنا ودمنا ونحن صرنا منها إخوة في الخير والشر.**[23]

لقد عمل الأمير على توحيد القبائل ونقلها إلى مستوى الوحدة عبر كلمته أثناء مبايعته أميرا على الغرب الجزائري ؛محاولا بناء دولة تقوم على المواطنة ولا تقوم على القبيلة؛يقول:**إن أهل مناطق معسكر واغريس الشرقي واغريس الغربي ومن جاورهم واتحد بهم وبني شقران وعباس والبرجية واليعقوبية وبني عامر وبني مهاجر وغيرهم أجمعوا على مبايعتي. ..مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين وإزالة النزاع والخصام بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا.**[24]

ورغم مساعي الأمير الرامية لتوحيد هذه الجماعات إلا أن مصالحها الخاصة كانت قاصرة على النظر إلى التاريخ في ظل تغيرات كبيرة شملت العالم أواخر القرن التاسع عشر ؛فكان كثير من القبائل يقف عائقا أمام مسار الأمير ولعل أبرزها قبائل **الزواف** التي تحالفت مع الجنرال "بيجو" في حربه ضد الزمالة ،ناهيك عن قبائل عدة من الغرب الجزائري بقيادة القايد "مصطفى بن إسماعيل" يقول الراوي:**كان بيجو مدعما بثلاث فيالق مدعومة بفرقة الزواف** Les Zouave[25] **لفتح الطريق ...مساعدة القايد مصطفى بن إسماعيل بفتح الطريق بستمائة خيال**[26]..شكلت هذه الجماعات نصف كماشة أمام الإمارة الفتية ،في حين أن النصف الثاني أطبقه ملك المغرب والجيش الفرنسي بقيادة الجنرال "بيجو" ؛لتعطي بذلك دليلا قاطعا على ضعف هذه الكيانات في

اللحظات التاريخية الحاسمة ؛ولعل ما يمنح هذا الفهم راهنيته ذلك الانتقاد الحاد الذي كان يوجهه وباستمرار "الأمير عبد القادر" إلى القبائل ؛يقول :

«ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين .الانتصار على الغزاة صعب ،نحتاج إلى أسلحة حقيقية إلى الماء إلى زراعة مغذية نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليومية ،نفكر كيف نصنع المدافع والأسلحة الخفيفة والسيوف،بدلا أن نكتفي بتصليحها أن نعيد اكتشاف البارود إذ دعت الضرورة ونتخلص من البارود الأخضر القبائلي الذي لا ينفجر؛ وإذا انفجر أحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو. المعركة استعداد يومي وإلا سنحني الرؤوس ونقوم بما قامت به بقية القبائل ونعود نتصيد الغنائم »[27].

إن التأخر الحضاري العلمي التقني الذي اتسمت به القبائل آنذاك هو ما زاد من عمق تشعبها واختلافها وجعل انخراطها في الفعل الراهن السياسي والعسكري سببا مباشرا لسقوط مشروع هوياتي جديد لمجتمع حديث يعيش في كنفه كل القبائل بما يضمن مصالحها .يقول الأمير : **«السيف بدأ ينسحب أمام البارود والمدفع اللومبردي والجياد والخيول الكبيرة أمام السيارات البخارية إنهم لا يعرفون إننا نحارب كذلك بالحيلة واللف والدوران أو غريزة حب البقاء وإلا لأبدنا وصرنا تحت سلطة الأعداء لو فقط يعرفون ولكني أدرك جيدا إنهم لا يعرفون . مشكلة قبائل الأشراف أنها لا زالت تظن أن الانتصارات تأتي هكذا بقدرة قادر.إننا اليوم لا نملك الآلة الفرنسية المدمرة ،ولكن نملك على الأقل الإرادة لتعطيل جزء من مفعولها ونحتاج في هذه الحالة إلى وحدة حقيقية وثقة كبيرة فيما نقوم به،وإلا سيأتي يوم ويتعطل كل شيء بدون أن نحصل حتى على الحد الأدنى .. »**.[28]

إن محاولات توحيد هذه الكيانات لا يتأتى إلا في ظروف ملائمة وآمنة وتتم عبر منظومات العلم والعقل وهذا ما جعل الأمير - بعد اختبار القبائل - يتجرع مرارة خيباته وانكساراته ويحكم عليها بأنها عاجزة عن فهم الواقع والتاريخ ؛يقول الأمير: « **نحتاج لوقت طويل لكي ندرك أننا من أرض واحدة ولو كنا من قبائل شتى وأن مستقبلنا الكبير في تكاثفنا وتعاضدنا وليس في تقاتلنا**[29]

بهذا الشكل؛ شكلت القبائل باعتبارها كيانات متباينة وهويات مترهلة غير ثابتة -في مستوى فهمها للعالم - سببا وجيها لسقوط مشروع الأنا الجزائري بسبب عدم اكتمال أو نضج وعي الجماعات التي تعيش على القطر الجزائري باعتبار الخريطة السياسية اليوم،ولعل هذا ما يجعل عبء رسم حدود هوية الأنا الجزائري محصورة فقط –وبشكل نسبي- في وعي الأمير عبد القادر

الجزائري الذي يمثل هوية فارقة في التاريخ نظرا لما تكتسيه الشخصية من حضور لافت في التاريخ الحديث.

و إلى جانب القبائل ،يدرج الراوي في برنامجه السردي أحد أهم العوائق وهو وجود الجماعات الدينية التي لا تود الاعتراف بالأمير سلطانا على البلاد وقد ترجمها في **الطائفة التيجانية** باعتبارها هوية دينية صوفية ؛ دخلت تحت حصار قوات الأمير طيلة نصف سنة خلف أسوار مدينة "عين ماضي" رغبة من الأمير في امتثالها للولاء والطاعة .يقول الراوي:

دام الحصار من 12 جوان حتى 2 ديسمبر،تاريخ رفع الحصار ،ثم حرق المدينة الذي انتهى يوم 12 جانفييه1839[30]

تصور الرواية مشاهد الحصار والبؤس الذي تعرضت له المدينة ناهيك عن تدميرها وتهجير سكانها من طرف الجيش الأميري؛ الذي أنهك نفسه في معركة جانبية أفقدته الزمن والمبادرة لتطوير دويلته الفتية .

4 -الهوية الفردية /الأمير "عبد القادر" بعيون الآخرين:

يعرف الفرد كذات متميزة عن الآخرين في ضوء معطى هو وجود الآخرين أنفسهم ؛وهذا المدخل لتحديد **الهوية الفردية**[31] يتم عبر رصد أعمال الفرد داخل الجماعة التي يعيش في كنفها ،كما يمكن معاينة هويته انطلاقا مما يحمله الآخرون من تصورات وتحديدات له.

وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن هوية فردية فارقة في التاريخ وفي النص الروائي وهي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري التي تشكلت كأثر وصورة ذهنية انطلاقا من خطابات الشخصية ذاتها أو من خلال ما قدمته أوجه النظر المختلفة في تقييمها للشخصية أو التعبير عنها.

وتعد شخصية الأمير الشخصية المهيمنة في الخطاب الروائي إذ اكتملت سرديا عبر معايير التأهيل ومعرفة الفعل والقدرة على الفعل ثم الإنجاز .فلكي **تحقق الذات إنجازها عليها أن تمتلك بشكل سابق الأهلية الضرورية لذلك ...وجوب الفعل ومعرفة الفعل وقدرة الفعل وإرادة الفعل** [32].

وقد عرضت الرواية شخص الأمير وقد تمثل قيم الثقافة والدين والسياسة والاجتماع ،حيث تعددت الأصوات الواصفة له بدءا بالقس "مونسينيور ديبوش" الذي قال:**أعود للتو من قصر امبواز قضيت أياما تحت سقفه المضياف في حميمية نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر..أعتقد أني أكثر معرفة بغيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن لأشهد بالحق من يكون هذا الرجل.**[33]وتعد شهادة القس أبرز صورة لدى الآخر حول الأمير الشخص/الهوية لا سيما بعد

تصاعد الجدل حول مصير الأمير بعد مكوثه في سجن أمبواز بفرنسا طيلة خمس سنوات ؛حيث كانت صورته لدى الإنسان الفرنسي متناقضة وضبابية عبر عنها الجنرال "لبرانس دولا موسكوفا "بقوله :«....**إما اعتبار عبد القادر مجرم حرب وقرصان تافه وفي هذه الحالة يجب شنقه على الفور أو اعتباره قائدا ومقاتلا سلم نفسه وفق وعد مكتوب وفي هذه الحالة يجب أن يعامل باحترام** »[34].

أما الجنرال "ماربو" فقد وصفه بالمجرم : **لا يجب أن ننسى أبدا أن هذا الرجل الذي تدافع عليه اليوم ذبح أكثر من 300 سجين فرنسي في يوم واحد إذا كنتم تعتبرون هذا الأمر هينا فأطلقوا سراحه ومرغوا شرف هذه البلاد في الأوحال**[35] .

في حين ضم الجنرال "بيجو" صوته للقس في الدفاع عن "الأمير" منوها بضرورة الحفاظ على العهد الذي قطعه الجنرال "دولا مورسيير" لتوقيع الاتفاقية مع "الأمير"؛يقول "بيجو":**احترامنا لهذا الجنرال العظيم دولامورسيير يمر عبر احترامنا لبنود الاتفاق التي عقدها مع الأمير عبد القادر.من يستطيع اليوم أن ينكر أن عبد القادر قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحق كل تقديرنا من جيشنا....فقد بادل الجنرال الفرنسي سيفه بسيف الأمير وهذا وحده يكفي للقول إن الضمانات المقدمة للأمير كانت كافية** [36].

يغلب على رؤية الآخر الفرنسي للأمير على أنها شخصية وطنية ؛وهذا ما عبرت عنه خطابات القس وبعض الجنرالات الذين عزوه شخصية استثنائية وجب التعامل معها باحترام ،وقد وصفت بالاستثنائية نظير مجهودات الأمير الإنسانية التي ترجمت من خلال مواقفه إزاء السجناء وأسرى الحرب وكذلك دفاعه على المستضعفين أينما كانوا ؛يقول الراوي على لسان القس:**عرفت عبد القادر في أيام عزه وقت كانت الجزائر كلها تحت سطوة سلطانه وقوانينه ستجده اليوم أكبر وأكثر إدهاشا في نقاشاته لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا ولا يتشكى أبدا ويجد الأعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح بأن يمسهم سوء ...بزيارتكم لهذا الرجل النبيل والاستثنائي الشخصية ستضيفون عملا إنسانيا جديدا إلى ما زخرت به حياتكم**[37].

والى جانب هذا التصوير تظهر في النص صورة الأمير من منظور الأنا الجزائري ممثلا في صوت السارد الشعبي الذي يعرضه في شكل البطل الخارق الأسطوري يقول الراوي:**رأيت مولاي عبد القادر الجيلاني شاء الله به في لباس أبيض فضفاض أخذني نحو زاوية وقال لي أغمض عينيك أغمضتهما وعند فتحهما كشف لي عن عرش كبير في الصحراء ...وجاء بشباب مليء بالحياة في عمر سيدي عبد القادر ووضعه وصيا على العرش**[38].

وعبر ملفوظات الحالة تتجسد صورة "الأمير" وفق المتخيل السردي الذي يقرب الرجل للأسطورة عبر سرد سيرة الأمير باعتباره بطلا خارقا تفوق قدراته قدرات البشر العادية ؛يقول السارد:

«الشاب هذا يا سادة يا كرام عليه براكة سيدي عبد القادر الجيلاني والأولياء الصالحين عوده مثل البراق ويطير حصانه للسماء عندما يحاصره الأعداء سيفه البتار يطفيء البرق من حدة لمعانه.القرآن في القلب وفي يده سيفه الذي لا ينزل إلى الأرض ولا ينام .وساسبو مايخونو أبدا .ناره ما تروح في الفراغ في موقعة وهران خلاص له البارود رفد عصاه وحفنة تراب وقال ربي اعني ونوشن صوب عدوه وفتح يده.فتت العدو إللي كانت قبالته »[39]

بالإضافة إلى هذا التصوير العجائبي ؛تعرض الرواية سيرة "الأمير" من زاوية أخرى تتعلق بالنظر إلى الأمير كإنسان عادي يحيا في وسط جماعته وهو يتحلى بمنظومة من القيم والمبادئ هي ذاتها ما يميزه كهوية استثنائية في النص فعرض الأمير في لحظات انتصاراته وانكساراته واجتماعه وعزلته ؛وهذا ما عمق هيمنة حضور هذه الشخصية على مسرح الأحداث النص/التاريخ.

خاتمة:

- ركزت الرواية على موضوع الهوية الدينية باعتبارها المدخل المناسب لتقريب الآخر والأنا تاريخيا .
- عمد الروائي إلى بناء هوياته بإشباعها بالموروث الثقافي والنفسي وما تقتضيه ظروف وملابسات المرحلة التاريخية المحددة بالقرن التاسع عشر.
- الهويات المترهلة في النص كالتمثيل القبلي مثلا يعد معول هدم وعائق في تشكيل وحدة هوياتية كلية تشكل مجتمعا واحدا .
- الهويات الفردية في النص بنيت على أساس أنها حوافز سردية تعمل كنقاط تحول في البرنامج السردي للرواية .
- تنوع الحضور الهوياتي بين الفرداني والجمعي والمعنوي وهي عينها الهوية الفردية والهوية الاجتماعية والهوية الدينية والهوية الوطنية والقومية.

الإحالات والهوامش:

[1]- السرد هو :الطريقة التي يختارها الروائي أو القاص وحتى المبدع الشعبي الحالي، ليقدم بها الحدث إلى المتلقي، فكأن السرد إذن هو نسيج الكلام ولكن في صورة حكي، وبهذا المفهوم يعود السرد إلى معناه القديم، حيث تحيل المعاجم العربية إلى تقديمه بمعنى النسيج أيضا،ينظر: (1)- عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغدادي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 1993، ص84.

[2] –واسيني الأعرج ،رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع ،بيروت ،ط3، ،2013ص11.

[3]- محمد السيد عبد الرحمان،مقياس موضوعي لرتب الهوية ،كلية التربية ،جامعة الزقازيق،دار قباء للنشر والتوزيع،القاهرة ،1989،ص14.

[4]-الرواية،ص248.

[5]- الرواية ص56.

[6]- الرواية،ص51.

[7]- الرواية ،ص51.

[8]- الرواية ص80.

[9]- الرواية ،ص318

[10]- الرواية ص 80.

[11]- الرواية ،ص 80.

[12]- الرواية ،ص344.

[13]- الرواية ص 334.

[14]- الرواية، ص ص 389.

[15]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة ،منشورات الاختلاف ،الجزائر العاصمة،ط1،2010،ص 68.

[16]-الرواية ،ص385.

[17]- الرواية،ص 402.

[18]- الرواية، ص417.

[19]- الرواية ص423.

[20]-الرواية، ص 428-429

[21]- الرواية ص462.

[22]- الهوية الجماعية :تلك الصورة أو ذاك الشكل الذي تكونه مجموعة معينة عن نفسها وإنها تنشا من الداخل باتجاه الخارج وهي وعي بجملة الأفراد الذين ينتمون إلى تحت عبارة هذه الهوية أي تتشكل في واقع الأمر من الأفراد»،ينظر: يان اسمن :الذاكرة الحضارية –الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارة الكبرى،تر:عبد الحليم عبد الغني رجب،الهيئة المصرية العامة، 2013،ص214.

[23]- الرواية،ص 93.

[24]- الرواية،ص ص .89-90

[25]- **الزواويون** بالانجليزية zouaves أو " ***الزواف***" هو اسم يطلق على القوات التي يتم تجنيدها محلياً للقتال مع العدو ضد الأهالي و اصل التسمية يرجع إلى قبيلة" زواوة "البربرية الجزائرية التي كانت تمد القوات العثمانية بالجنود ،وعندما احتلت فرنسا الجزائر أسس المارشال " بورمون Bourmont " عام 1830 تشكيلات عسكرية من أفراد هذه القبيلة كامتداد للتشكيلات العثمانية . حارب الزواويون بجانب القوات الفرنسية المستقلة في شمالي إفريقيا حتى إبان الحرب العالمية الثانية.. wikipidia.com .. www1939 -1945

[26]- الرواية ،ص 304.

[27]- الرواية،ص 94.

[28]- رواية الأمير،ص 224.

[29]- الرواية،ص 114.

[30]- الرواية،ص279.

[31]- الهوية الفردية :منظومة المعطيات المادية والمعنوية –التي تشكل وعي الإنسان بذاته- ولا يمكن لمثل هذه المنظومة أن تكون في حيز الوجود ما لم يكن شيء ما يعطيها روحها ومعناها ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها ». ينظر-اليكس ميكشللي: الهـوية،دار الوسيم للخدمات الطبعية،دمشق،ط1،، 1993،ص129.

[32]- سعيد بن كراد :مدخل إلى السينائيات السردية،منشورات الاختلاف،المغرب،ط2003،2،ص60.

[33]- الرواية ،ص21.

[34]-الرواية،ص 32-33.

[35]- الرواية ،ص33

[36]- الرواية ،ص 34.

[37]-الرواية ،ص46.

[38]-الرواية،ص86.

[39]- الرواية ،ص79.